هو وجع الاسلام

بقلم فؤاد الشايب

نعود الى الموضوع، وهل ثمة موضوع سوى فلسطين ؟ وهل ثمة ما هو اخطر من مصير العرب مع اسرائيل ؟! وهل كان في تاريخ العرب منذ فجر الاسلام موضوع اكثر مساساً بالكيان العربي ، وأشد لصوقاً بحياة كل عربي ؟!

يقولون : يكفي كلاما ... ويحسبون اننا افرغنا حولتنا ، احاديث وكتابات ، واقوالاً ، وان النفوس اصبحت تعاف القول والقوالين ، والاحاديث والمتحدثين .

يقولون، وفي قلوبهم خور ، وفي عقولهم اضطراب : ما جدوى الموضوع وعودتنا اليه ؟! وما الكلام فيه ، وما قيمته ؟!

فاذا كان الكلام ما يعرفون بانه ذاك الهذيان المريض، والتشدق الاهوج، والحماسة الفارغة ذات الطبول السياسية الجوفاء ، فقد كفانا حقاً ما اطلقناه في الفضاء ، كرصاصات في ضجة عرس ... اما اذا كان الكلام ، ما يجب ان نقول وننشر ونذيع بين الناس عن كارثة فلسطين ورزء العرب ، فهيهات ان تفي انهار من الحبر على جبال من الورق ؟!

لقد سحقنا عدونا سحقاً في معترك الكلام والنشر ، وسجل علينا هزيمة لا يزال بعضنا يظن انها اتفه شأناً من هزيمة الجيوش ؟! انها بالواقع ، تغطية للزحف ، وتمهيد للغلبة ، وتعزيز للاجتياح والاحتلال . فعندما زحفت بواخر العدو نحو الشاطيء العربي تقل من يسميهم العالم المأخوذ بالدعاية الصهيونية : (معذبي الارض) كانت اكف الملايين من سكان الارض تصفق طرباً لزحف هؤلاء القراصنة الغاصبين وكنا نحن في شرع العالم الذي يقرأ ويسمع ، جماعة من البداة ، الغلاظ ، تمنع الرحمة والمأوى عن المضطهدين ونساهم مع النازية في نفخ الغرور العصبي ، وسحق المبادىء الانسانية الرحيمة في العالم . وقد اصبحت معروفة قصة الدعوة الى التبرع بدولار واحد ، لقتل عربي ... تلك القصة التي نشرها الكاتب الامريكي غريزوولد ، ليثير الضمير العالمي ضد وحشية الصهيونية . وما هي الا دليل آخر على ان العرب بلغوا من سوء السمعة عن طريق الدعايات الصهيونية ، حتى اصبحت مقبولة لدى الرأي العام في اي بلد اوروبي او امريكي أية دعوة للتبرع في سبيل ازهاق انسان عربي ...

فأذا كان بعضنا يرى ان قد كفينا مؤونة الكلام، ولا جداء بعد منه... فالرأي صحيح ، اذا كان تعريف الكلام ، بالهذيان ، والتشدق والصياح ضمن الجدران الاربعة ، والتجمع كالذباب حول جدار (مبكى) عربي ، نقرع حوله الصدور وننفش الشعور ، وننادي بفظائع قبية ودير ياسين ، في الاقبية والسراديب ...

واذا كان المقصود بالكلام ، تلك الافكار المجنحة ، المرسلة عن سبل الطباعة والاذاعة في جميع انحاء العالم دفاعاً عن العرب وسمعتهم ، وقضاياهم ، فما اتفه ما ارسلناه من هذا الكلام، وما اعجزنا في هذا الطراد ، وما اقبح عبئنا وجودنا ، وذهولنا ذهول البقر في موقف الخطر ...

ان الذي نعلمه ، حول ما نشر من بضاعة الكلام ، ان الدول العربية مجتمعة ، في دمشق منذ اربعة اعوام ، قرر مندوبوها انشاء صندوق مشترك للدعاية العربية في الخارج ، اي (صندوق عربي لشن حملة كلام منظمة امام سمع العالم وبصره ..) وما زال مشروع الصندوق ، في الصندوق الفاخر الذي طالما ادرجت فيه مشاريع عربية شتى ... غدت مع الزمن وثائق محنطة في الغفلة والاهمال ، وسوء المصير !

لماذا لم ينجح مشروع الصندوق العربي المشترك ، الدفاع عن النفس بالكلام ... ولا شيء إلا بالكلام ... والكلام وحده ...؟! لو كانت الدعوة الى حشد عربي اقتصادي او عسكري ، لقلنا ان للأمر عقده ومعضلاته ، ولا بد من زمن ، ولا بد من وضع ، ولا بد من سياسة ... وثمة في الطريق عقبات داخليه وخارجية ... مما نعلم او لا نعلم . اما وان الدعوة الى الكلام في موضوع لا مجال للاختلاف في اساسه ، او في ادائه ، فلا ندري كيف تطوى الدعوة وتوأد المقررات، وتنام الخدود على مثل الورود ... والضمائر على مثل الحرائر ... كأن الزوبعة الضارية التي رمت الى البؤس والهوان الوف العرب خارج فلسطين ، ليست مستمرة التعبئة لترمي ملايين العرب ، خارج حدود العرب ... او كأننا نظن اننا وقد دفعنا سلفة على الحساب من دم اخواننا وابنائنا في فلسطين ... سنجو من دفع الرصيد الكامل من دمنا ودم ابنائنا في جميع تلك البلاد الموصوفة في الرسوم الجغرافية، بانها عربية ؟!

الوف الكتب والنشرات تصدر عن اسرائيل ، ومنظماتها ، وانصارها خارج اسرائيل ، اغرقت العالم ، ودوخت الافكار ، وبلبلت السنة الحق ، وضلت الملايين من الابرياء ، وطوقت الاسم العربي ، بالهالات السود والصفر ، حتى اصبحت الدعوة الى (التبرع بدولار لقتل عربي) تلقى في الآذان والنفوس قبولاً وارتياحا ...

فما هو موضوع هذه الحملة النشرية الواسعة التي اكسبت قضية العدو، عطفاً عالمياً ذائعاً ؟!

ليس المجال متسعاً لأعرض صوراً من تهاويل الصهيونية وانصارها في كسب معركة الرأي العام العالمي ضد العرب. على انني سأوجز بعض الاسس والفكر التي قامت عليها الحركة الصهيونية ، من قبل ان تقع الكارثة ويغدو الامر الواقع في نظر الدول امراً مشروعاً ... لأنه واقع !

الفكرة الاولى : يجب ان ينقذ اليهود من اضطهاد عالمي ، قاسوا اهواله ، مئات السنين ، فهم شعب جديرون كسواهم من الشعوب او اجدر ، بنعمة الحياة الحرة المستقرة . وتحت نفوذ هذه الفكرة ، حمل اعضاء لجنة التحقيق حقائبهم الى فلسطين. ولقد كانوا جميعهم، مؤمنين بصدق الخرافة اليهودية التي اذاعها اليهود تحت الشمس،بان النازية قد قتلت من ابائهم وامهاتهم واطفالهم عشرة ملايين يهودي خلال اعوام الحرب-حتى ان الصابون الذي يغتسل به النازي من عظام الضحايا،وعلب السردين من مفروم لحوم الاطفال، والادوية والعقاقير من مصل دمائهم ، وعصارة اكبادهم .

الفكرة الثانية : ان العرب يضنون بواحد من مئة من الارض على اليهود ، بينما يهملون التسعة والتسعين منها ، بوراً ، وصحراء ، وخرابا ، فلا يعيشون فيهذه الارض المباركة،ولا يتركون سواهم يعيش. فما هم اليهود منذ نصف قرن ، يفجرون الحياة والماء في قلب الصحراء وفي رواكد المستنقعات ، وينشرون الظل والعطر ، حيث يسود البعوض، وتخنق الارواح سحابات كثيفة دكناء من الحميات . وهكذا فأن استثمار الارض لا يمس مصالح العرب ، بل ان مصالحهم لا تؤمن الا بمثل هذا المجهود العملي . وكل ما هنالك ان الاذى إنما يصيب الكبرياء القومية عند العرب ، وهذا ليس بالأمر الذي يؤبه له ازاء فداحة الدراما اليهودية في العالم . ولن يمضي وقت حتى يتصالح عرب ويهود ، تحت ضغط الضرورة والحاجة ، لأن اليهود بحاجة الى الانتاج

فكرة الشهر

الزراعي المصدر من الدول المجاورة ، والعرب بحاجة الى الانتاج اليهودي الصناعي ، فيتمم احدهمـــا الآخر – كما قال بن غوريون – ثم لا بد للأمر الواقع ان يحدث تبديلاً في نفوس العرب ، لأنهم في باطنهم معنا ويأبى عليهم التسليم بالحقيقة ، غرورهم ، واسيادهم وحلفاؤهم الانكليز ..!!

والفكرة الثالثة : التي قامت عليها الصهيونية، ودعاتها في المعسكرين الشرقي والغربي ، وفي بعض الاوساط المحايدة ان العرب اينما كانوا ، عبيد الاستعمار الانكليزي ، الذي يضع السلاح بيد العرب تارة ، وبيد اليهـــود اخرى ليقتتلوا فيما بينهم، وان سيادتهم في الشرق الاوسط موطدة مع العرب لأنهم خانعون اذلاء ، ومزعزعة الاركان الى جانب دولة يهودية حرة . ثم ان الانكليز ، يعملون لتأييد سلطانهم في هذه البقعة عن طريق الانتداب او اي اسلوب من اساليب الحكم ، فهم يقاومون بالقوة او بالحيلة ، كل من اشتد ساعده فيهدد هذا السلطان .

ومهما يكن من شأن هذه الفكرة التي تفنن الدعاة الصهيونيون في نشرها واذاعتها ، انما يهمنا ان نصل الى المرمى الذي اصابته سهامها ، في تصوير العرب ، امة لا قضية لهم ، وليس جهادهم في فلسطين سوى حركة مسرحية يخرجها الانكليز ، لأغراضهم الاستعمارية . وان اليهود بعد ان كانوا ضحايا هتلر والطغاة في اوربة ، انما يؤلفون مرة ثانية ضحايا العرب ومن ورائهم حراب الانكليز ... ولقد اخذ هذا التهويل ، بقلوب الكثرة من المناضلين والمفكرين في اوربة ، ولم يكن الرأي العام في روسيا ومن حولها ، وفي امريكة الشمالية وبعض امريكة اللاتينية ، ليتردد في قبول اي فكرة سوء عن الاستعمار الانكليزي ، ولما كان هذا الرأي العام يجهل العرب ، بقدر ما يعرف الانكليز فقد قبل بلا جدل ، ان العرب ، مجموعة من القطعـــان الهائمة في الصحراء ، لا روح فيهم ، الا ما ينفخه الانكليز .

الفكرة الرابعة : التي تشبث بها دعاة الصهيونية، حتى رسخت اقدامهم في فلسطين ، هي (وعد بلفور) . ولقد ظل الصهيونيون يمتحون مـــن بئر (وعد بلفور) وحده ربع قرن واكثر ، عندما لم يكن بين ايديهم من حيلة سوى الوعد ، وصك الانتداب ، الذي نص على دعم الوعد بوطن قومي لليهود . حتى اذا حان الوقت ، رجوا امة بلفور بالحجارة – واصبحت حجتهم الاولى الكسب بالأمر الواقع – وبتأليب الرأي العـــام العالمي الى جانبهم ضد الانكليز وحلفائهم العرب .

وكانت الفكرة الخامسة التي اطلقها الصهيونيون ودعـاتهم رداً على حجة قوية–اعترف حتى خصوم العرب بوجاهتها–هي انه اذا كان لليهود حق في وطن قومي واذا كان ضمير العالم يرحب بهجرتهم الواسعة غير المحدودة الى فلسطين ، واذا كان وعد بلفور وثيقة شرعية في ايديهم فما وضع العرب سكان البلاد واهلها ازاء هذا السيل الجارف ؟ او ليس لهم ، مهما كان شأنهم، حق الاقامة والاستقرار في وطنهم ؟!

كان جواب بن غوريون ، الذي تبنته لجنة التحقيق فيما بعد وسمعه مندوبو الدول على لسان الصهيونيين في كل مناسبة : (ان حقنا في فلسطين لا يحده سوى قيد واحد ، اذا لم يفرضوه علينا ، فرضناه على انفسنـــا وهو انه لا يجوز بحال من الاحوال ان يؤدي انشاء وطننا الى ترحيل السكان العرب من بلادهم)

وكان جواب بن غوريون ووايزمـــان : اسسوا الدولة اليهودية اولاً ونحن على ثقة من ان الوقت سيحل عقدة الخـــلاف مع العرب . اعطونا الفرصة المناسبة وافسحوا لنا المجال لنأتلف مع الوسط ونتعاون مع العرب ..

كان بن غوريون ووايزمان امام اللجان الدولية يتكلمان كما يتكلم النساك والزهاد الفقراء، وكان الدعاة ينشرون آراء الوكالة اليهودية بان صحراء النقب وحدها لو اعطيت لليهود لكفتهم وطناً فالنقب لا يسكن اطرافها سوى بعض العرب المترحلين بينما تتسع اذا استثمرت بالوسائل العلمية الحديثة لأسكان مليون ونصف المليون من اليهود وليس في سكنى الصحراء المتروكة ما يضر بصالح العرب .

وسئل بن غوريون في لجنة التحقيق : اذن انتم تطلبون من هيئة الامم ثلاثة امور . اولها الغاء الكتاب الابيض وثانيها انشاء الدولة اليهودية وثالثها التعاون مع العرب ... لماذا لا نبدأ مثلاً بالأمر الثالث وهو الاهم : التعاون مع العرب ؟ وكان جواب بن غوريون ضعيفاً فاتراً ... ايها السادة ! طالما انه باستطاعة العرب ان يمنعوا دولتنـــا من النشوء ... فلن يتم معهم اي تعاون ... ولكن اذا وضعوا امام الوقائع المقررة لانوا واستكانوا ...

لم يكن جواب بن غوريون مقنعـــاً ، ولكن الدول ذات العلاقة كانت عـــلى ثقة من ان ما يجب ان يحدث في فلسطين هو انشاء دولة يهودية بالقوة ..

وفي سبيل ذلك ، لا بد من دعـــاية تهويل واسعة تغرق القضية العربية بتبعها زحف عملي عسكري واقتصادي يحقق سياسة الامر الواقع .

ولم يكن احد من انصار الصهيونيين في الدول الكبرى والصغرى يعتقد في قرارة نفسه ان اليهود سيخلدون الى السكينـــة والهدوء ، وان التقسيم سيضع كلا الجانبين في حدوده المفروضة ، وان السلام في الشرق الاوسط يعالج عن هذه السبيل ، ولكن هؤلاء الانصار ، كانوا على ثقة من ان هذه الشراذم الغاصبة ... ستجد لها مع العرب طريق الخلاص ...

كان ذلك منذ عام ١٩٤٩ ... وما زال هؤلاء الانصـــار الى جانب الصهيونية يفتشون لها عن طريق للخلاص !

طريق الخلاص غدت واضحة امام الصهيونية وانصارهـــا . فلا بد من دعاية تهويل واسعة ، لأغراق قضية العرب ، بالظـــلام ، والشك ... والباطل ... ولا بد من هجمات متتابعة في ميدان الكسب بالأمر الواقع .. لا تلقى اي صدى استنكار او استهجـــان . لذلك نسمع ابداً في ابواق الصهيونية وانصارها من كبار رجال السياسة في العالم ان اسرائيل واقع ... لا بد للعرب من الاعتراف به ..!! ولا بد في سبيل ذلك من سلب العرب ورقتهم الكبرى التي يلعبون بها في ضمير العالم ... وهي ورقة اللاجئين ... فلنطو الصفحة ولندفن القتيـــل ... ولنمسح الدموع ... ولنعترف بالأمر الواقع ... فالعرب خاسرون وهم اعجز من ان يجابهوا اسرائيل ...!!! هكذا تصور دعاياتهم قضيتنا في العـــالم ... وهكذا ... قرر مجلس جامعة الدول العربيـــة في دمشق منذ اربعة اعوام انشاء صندوق عربي مشترك للدعـــاية ... ولا تزال المقررات تغفو بأمان في هودج الاحلام ، كما يغفو حبيبان مخدران بسحر انغام الوله المعول، والعطف الرعديد، والاستسلام الخائر والبكاء الموسخ الخدود... مما هو جدير بأن تغرق له الثياب والاعصاب... وتهيل التراب ...

اربعة اعوام ، ومشروع انشاء الصندوق المشترك للدعاية العربية ينـــام في اضابيره .

اللهم اعف عنا .. يا ارحم الراحمين ؟!

فؤاد الشايب